

كيف نعيدهم إلى المحاضرات؟ استراتيجيات تحفيزية عملية لتعزيز الحضور الفعّال في التعليم الجامعي

عبد الوهاب عليلي*	جباك ربحانة
جامعة الجامعي مرسلتي عبد الله تيبازة (الجزائر)	جامعة الجامعي مرسلتي عبد الله تيبازة (الجزائر)
alili.abdelwahhab@cu-tipaza.dz	Raihanapsy08@gmail.com
ملتقى: ظاهرة غياب الطلبة عن المحاضرات وانعكاساتها على جودة التعليم الجامعي	

ملخص

تشهد الجامعات اليوم تحديًا غير مسبوق في ظل تنامي ظاهرة عزوف الطلبة عن حضور المحاضرات، خاصة بعد التعود على أنماط التعلّم المرنة خلال الجائحة. ولم تعد سياسات الإلزام ولوائح العقاب كافية، بل قد تزيد من نفور الطالب. ولعلنا لاحظنا جميعًا المشاعر السلبية التي يأتي بها الطلبة إلى الحصص الإلزامية (الأعمال الموجهة)، غير أن الغياب الحقيقي في إعتقادي ليس هو الغياب الجسدي عن المحاضرة، إن الغياب الحقيقي هو الغياب الذهني، إن الطلاب الذين قرروا حضور المحاضرات بأبدانهم وغابوا عنها بأذهانهم هم أكبر الضحايا وأكبر الخاسرين في معادلة التعليم الجامعي.

لذلك، تطرح هذه الورقة أسئلة جوهرية: كيف نتحوّل من محاولة إجبار الطالب على الحضور إلى جعل المحاضرة نفسها تجربة تعليمية تستحق الحضور؟ وكيف نرد الجميل للطلاب الذين قرروا الحضور في عصر الغياب؟ وكيف يمكن للأستاذ أن يستبقى أذهانهم مع المحاضرة بعد أن نجحوا هم في استبقاء أبدانهم معها؟

الكلمات المفتاحية: الحضور البدني، الحضور الذهني، استراتيجيات التحفيز، تعزيز الحضور الجامعي، التصميم التعليمي

* المؤلف المرسل

أولاً: المقدمة

يشهد التعليم الجامعي اليوم تحولات عميقة أعادت تشكيل علاقة الطالب بالفضاء الأكاديمي. لم يعد الحضور إلى المحاضرات فعلاً بديهياً أو مسلماً به كما كان في السابق، بل أصبح محكوماً بمقاييس جديدة للقيمة والجدوى. فبعد تجربة التعلم عن بُعد التي فرضتها جائحة كورونا، والتي أتاحت للطلبة مرونة غير مسبوقة في تنظيم وقتهم وتلقي المحاضرات، باتت العودة إلى القاعات الدراسية تمثل تحدياً حقيقياً للمؤسسة الجامعية. فظاهرة عزوف الطلبة عن حضور المحاضرات لم تعد مجرد مشكلة سلوكية فردية، بل تحولت إلى مؤشر على أزمة أعمق تمس جودة التعليم وفعالية العملية البيداغوجية.

في هذا السياق، يبرز سؤال جوهري: كيف يمكن للجامعة أن تستعيد جاذبيتها، وتجعل من المحاضرة الحضورية تجربة تعليمية ثرية تستحق العناء؟ هل ما زالت سياسات الإلزام والعقاب مجدية في زمن بات فيه المحتوى متاحاً بضغطة زر؟ أم أن الأمر يتطلب نقلة نوعية في فلسفة التدريس الجامعي نفسه؟

انطلاقاً من هذه التساؤلات، تسعى هذه المداخلات إلى تجاوز المقاربات التقليدية القائمة على الترهيب والجزاء، باتجاه بناء إطار تحفيزي عملي يجعل من حضور المحاضرة خياراً نابعاً من قناعة الطالب بأن ما يقدمه له الأستاذ يستحق وقته وجهده. وبتعبير أدق، سنحاول الإجابة على سؤال: كيف ننقل من "إجبارهم على الحضور" إلى "جعل المحاضرة تستحق الحضور"؟

ثانياً: عرض المشكلة وتحليلها

1. مظاهر الظاهرة وتفاقمها

تكشف الإحصائيات والدراسات الميدانية في العديد من الجامعات الجزائرية والعربية عن تفاقم ملحوظ في معدلات غياب الطلبة عن المحاضرات، خاصة النظرية منها. وتشير الملاحظات الميدانية إلى أن نسب الحضور في بعض الأقسام لا تتجاوز 30% إلى 40% من الطلبة المسجلين، خصوصاً في المحاضرات التي تعتمد أسلوب الإلقاء التقليدي. والأكثر إثارة للقلق أن هذه الظاهرة لم تعد تقتصر على الطلبة الضعاف دراسياً، بل امتدت لتشمل فئات متفوقة تفضل الاعتماد على التسجيلات أو الملخصات الجاهزة.

2. الأسباب العميقة للظاهرة

ويمكننا حصر العوامل المفسرة لهذه الظاهرة في ثلاث فئات رئيسية:

- عوامل مرتبطة بطبيعة المحاضرة:

كغياب التفاعلية، والاعتماد على التلقين، وضعف الربط بين المحتوى والتطبيق العملي،

وتكرار المحتوى المتاح في الكتب والموارد الرقمية وغيرها.

- عوامل مرتبطة بالطالب:

كالاعتياد على نمط التعلم الذاتي عن بُعد، وصعوبة التكيف مع الجداول الزمنية

الصارمة، وضعف المهارات التنظيمية، وتعدد الانشغالات وغير ذلك.

- عوامل مرتبطة بالسياق:

مثل تراجع مكانة المحاضرة التقليدية في عصر الرقمنة، وضعف آليات متابعة الغياب،

وعدم وجود حوافز حقيقية للحضور.

3. انعكاسات الظاهرة على جودة التعليم

لا تقتصر تداعيات هذه الظاهرة على الجانب الإداري، بل تمتد لتشمل:

- تراجع مستوى التحصيل العلمي، خاصة في المواد التراكمية التي تتطلب متابعة مستمرة.

- إفقار المحاضرة روحها الجماعية، وتحولها إلى مجرد تسجيل للمعلومات.

- حرمان الطلبة من فرص التفاعل المباشر مع الأستاذ، والتغذية الراجعة الفورية.

- تعميق الفجوة بين ما يدرسه الطالب وما يحتاجه سوق العمل.

4. التساؤلات المحورية للمداخلة:

- ما الذي يجعل الطالب يختار حضور المحاضرة جسدياً ويغيب عنها ذهنياً؟

- كيف يمكن تحويل المحاضرة الجامعية إلى تجربة تعليمية جاذبة وممتعة؟

- ما دور تقنيات التعليم الحديثة في تعزيز المشاركة الفعالة؟

ثالثاً: أهداف المداخلة وأهميتها

الأهداف:

1. فهم دوافع الحضور البدني والعزوف الذهني عن الحضور من وجهة نظر الطالب نفسه.

2. تقديم إطار نظري مرجعي لاستراتيجيات تحفيز الحضور الجامعي.

3. اقتراح مجموعة من الآليات العملية التي يمكن للمحاضر تطبيقها مباشرة.

الأهمية:

تكتسي هذه المداخلة أهميتها من كونها تتعامل مع المشكلة من جذورها، أي من داخل القاعة الدراسية، عبر التركيز على العامل البيداغوجي بدلاً من الاكتفاء بالمعالجة الإدارية. كما أنها تقدم مقارنة توفيقية تجمع بين خبرة الميدان، وتقنيات التعليم الحديثة، في إطار متكامل قابل للتطبيق في الجامعة الجزائرية.

رابعاً: استراتيجيات تحفيزية لتعزيز الحضور

و يمكننا أن نطلق عليها "ثلاثية إعادة الجذب" أو "ثلاثية الاستبقاء الذهني" وتمثل هذه الثلاثية جوهر المداخلة، وهي عبارة عن مجموعة متكاملة من الاستراتيجيات العملية المصنفة في ثلاث فئات رئيسية، كل منها يكمل الأخرى ويعززها.

الاستراتيجية الأولى: إعادة تصميم المحتوى والتقديم (جعل المحاضرة تستحق الحضور)

لا يمكن الحديث عن تحفيز الحضور دون العودة إلى جوهر العملية التعليمية: المحتوى وطريقة تقديمه. فالطالب المعاصر، الذي اعتاد على استهلاك محتوى رقمي جذاب ومتنوع، لم يعد يقتنع بمحاضرة تقليدية تعتمد على الإلقاء الأحادي والسبورة القديمة والطباشير. وهنا تبرز ضرورة تبني مداخل بيداغوجية جديدة:

- التصميم القائم على المشكلات:

بدل البدء بالنظريات والمفاهيم المجردة، يمكن البدء بمشكلة حقيقية من واقع الحياة أو سوق العمل، ثم تشكيل المحاضرة كرحلة لحل هذه المشكلة. هذا يجعل المحتوى ذا معنى مباشر للطالب.

- تقنية التعليم المقلوب المصغر:

بدلاً من إلقاء كل المعلومات في القاعة، يمكن تكليف الطلبة بمشاهدة فيديو قصير أو قراءة نص قبل المحاضرة، ثم يُخصص وقت المحاضرة للنقاش والتحليل والتمارين التطبيقية. هذا يضمن حضوراً نشطاً وليس مجرد استقبال سلبي.

- قاعدة التنويع كل 20 دقيقة:

أثبتت أبحاث علم الأعصاب أن تركيز الإنسان لا يدوم طويلاً. لذلك، يُنصح بتقسيم المحاضرة إلى فواصل زمنية لا تتجاوز 20 دقيقة، مع تغيير النشاط: شرح ← سؤال تفاعلي ← نشاط جماعي ← فيديو قصير ← مناقشة مفتوحة. هذا يكسر الرتابة ويجدد الانتباه.

- ربط المحتوى بالسياق:

توضيح العلاقة بين ما يُدرّس في القاعة ومتطلبات الحياة المهنية. مثلاً، كيف يمكن لنظرية في علم الاجتماع أن تساعد في فهم ظاهرة اجتماعية معاصرة؟ هذا النوع من الربط يخلق قيمة مضافة لا يمكن للطلاب الحصول عليها من مجرد قراءة كتاب.

الاستراتيجية الثانية: تفعيل أدوات المشاركة والتقييم الفوري (جعل الطالب شريكاً)

يكشف الطالب قيمة الحضور عندما يجد نفسه مشاركاً فاعلاً في صنع المعرفة، وليس مجرد متلقٍ. ولعل تحقيق هذا يتطلب ما يلي:

- استخدام المنصات التفاعلية البسيطة:

أدوات مثل Kahoot أو Slido أو Mentimeter تتيح طرح أسئلة فورية، واستطلاعات الرأي، والتصويت، وحتى استقبال أسئلة من الطلبة بشكل مجهول. هذه الأدوات لا تحتاج سوى إلى هاتف ذكي واتصال بالإنترنت، وتحول القاعة إلى فضاء تفاعلي حي.

- التقييم التكويني الفوري:

يمكن تخصيص نقاط صغيرة (قد لا تتجاوز 5% من الدرجة النهائية) للمشاركة الفعالة خلال المحاضرة. ليس المطلوب مراقبة كل طالب، بل تقدير الإجابات الذكية، المداخلات المتميزة، أو حتى الأسئلة الجيدة التي يطرحها الطلبة. هذا يشجع على الاستعداد الذهني والتفاعل.

- تعزيز الاعتماد المتبادل عبر المجموعات الصغيرة:

تشكيل مجموعات عمل ثابتة داخل القسم، وتكليفها بمهام تعاونية (تحليل حالة، إعداد ملخص، حل تمرين) تتطلب حضور جميع الأعضاء للمساهمة. الشعور بالمسؤولية تجاه المجموعة حافز قوي للحضور.

- المناقشات المفتوحة والحوارات النقدية:

تشجيع الطلبة على تحدي الأفكار وطرح أسئلة "ماذا لو" و"لماذا". المحاضرة التي تتحول إلى ورشة تفكير نقدي تصبح تجربة فكرية لا تُعوّض.

الاستراتيجية الثالثة: بناء البيئة الداعمة والاعتراف (تعزيز الانتماء والقيمة)

لا تقتصر جاذبية المحاضرة على المحتوى والأدوات فقط، بل تتعداها إلى المناخ العاطفي والنفسي الذي يسود القاعة. الطالب يعود إلى مكان يشعر فيه بالتقدير والاحترام:

- التغذية الراجعة الإيجابية الفورية:

الاعتراف بمساهمات الطلبة علناً ("فكرة رائعة"، "سؤال ذكي"، "تحليل عميق") يعزز ثقتهم بأنفسهم ويجعلهم يتشوقون لتكرار التجربة. يمكن لتغريدة أو رسالة شكر بعد المحاضرة أن تصنع فرقاً كبيراً.

- إضفاء الطابع الإنساني على العلاقة:

التواصل مع الطلبة بأسمائهم، الاهتمام بمشاكلهم الأكاديمية، فتح باب النقاش خارج أوقات المحاضرة عبر البريد أو وسائل التواصل. الطالب الذي يشعر بأن أستاذه يهتم به فعلاً، سيكون أكثر التزاماً بالحضور.

- ربط المحتوى بالتطوير الشخصي:

ليس فقط توضيح الأهمية الأكاديمية للمادة، بل أيضاً ربطها بمهارات حياتية (التفكير الناقد، التواصل الفعال، حل المشكلات، العمل الجماعي). الطالب الذي يدرك أن المحاضرة تصقله كشخص، وليس فقط كدارس، سيكون أكثر حرصاً عليها.

- استخدام التسجيلات كحافز لا كبديل:

بدلاً من نشر تسجيل المحاضرة كاملاً للجميع (وهو ما يقتل الحافز للحضور)، يمكن نشر "خلاصات ذكية" أو "مقاطع تفاعلية" للحاضرين فقط، أو مناقشة عناصر إضافية في المحاضرة لا توجد في التسجيل. بهذه الطريقة، يصبح التسجيل مكماً وليس بديلاً.

خامساً: الخاتمة والتوصيات

تؤكد هذه المداخلة أن ظاهرة عزوف الطلبة عن حضور المحاضرات ليست قدراً محتوماً - سواءً تعلّق ذلك بالحضور البدني أو الحضور الذهني - ولا يمكن معالجتها بمزيد من الإجراءات العقابية أو الترهيبية. الحل الجذري يكمن في إعادة النظر في فلسفة التدريس الجامعي: من "نقل المعرفة" إلى "بناء التجربة التعليمية"، ومن "سلطة الأستاذ" إلى "بناء شراكة مع الطلبة".

إن إستعادة الطلبة داخل القاعات تتطلب أن نكون صادقين مع أنفسنا: هل فعلاً ما نقدمه في محاضراتنا يستحق حقاً أن يقطع الطالب من أجله المسافات؟ هل يستحق فعلاً أن يبقي

ذهنه معه؟

في إعتقادي، المعادلة بسيطة لكنها عميقة في آن واحد: لا يمكن أن نلوم الطالب على الغياب والغياب الذهني خاصةً، إذا كنا لم نخلق أسباباً كافية للحضور والحضور الذهني خاصةً. ولا شك أن هذا الأخير هو نتيجة حتمية أو تنويع آلي لمدى صدق الأستاذ المحاضر في أداء رسالته وليس مجرد تقديم محاضرة.

بعض التوصيات:

بناءً على ما تقدم، نقترح التوصيات التالية:

1. حضر ثم حضر ثم حضر.
2. ابدأ محاضرتك القادمة بسؤال أو مشكلة.
3. جرب تنويع الأدوات في محاضراتك بين السبورة والعرض التقديمي والكتاب.
4. خصص 5% من الدرجة للمشاركة الفعالة، ووضح معاييرها للطلبة.
5. تعلم أسماء طلبتك، وخاطبهم بها.
6. انظم الى ورشات تكوينية دورية حول البيداغوجيا الجامعية التفاعلية.
7. استفد من الخبرات والتجارب الناجحة للأساتذة المحاضرين المبدعين.
8. العمل على تطوير أدوات تقييم دقيقة لقياس "جاذبية المحاضرة" كمتغير قابل للقياس وتطبيقها على الطلبة.

قائمة المراجع

1. الدوسري، م. (2021). التعليم المقلوب في الجامعات العربية: دراسة تحليلية. مجلة العلوم التربوية، 29(3)، 211-240.
2. الزهراني، ف. (2020). فاعلية استراتيجيات التدريس التفاعلي في تحسين دافعية الطلبة. دراسات في التعليم الجامعي، 45، 78-102.
3. قطيط، غ. (2021). التعلم النشط: أسس واستراتيجيات. عمان: دار المسيرة.
4. مرعي، ت. والحيلة، م. (2019). تصميم التدريس الجامعي في ضوء الاتجاهات المعاصرة. عمان: دار الفكر.
5. Barkley, E. F. (2010). Student engagement techniques: A handbook for college faculty. Jossey-Bass.
6. Biggs, J., & Tang, C. (2011). Teaching for quality learning at university (4th ed.). McGraw-Hill.
7. Bonwell, C. C., & Eison, J. A. (1991). Active learning: Creating excitement in the classroom. ASHE-ERIC Higher Education Report.
8. Freeman, S., et al. (2014). Active learning increases student performance in science, engineering, and mathematics. PNAS, 111 (23), 8410-8415.
9. Prince, M. (2004). Does active learning work? A review of the research. Journal of Engineering Education, 93 (3), 223-231.
10. Mazur, E. (1997). Peer instruction: A user's manual. Prentice Hall.
11. Wiggins, G., & McTighe, J. (2005). Understanding by design (2nd ed.). ASCD.